وطن ضائع

سار في الأرض الخلاء متجولاً كعادته كل صباح .. تشمّم ترابها .. حفر بقوائمه الأمامية هنا وهناك، باحثا عن شيء مجهول أو أثر مفقود .. انتهى من جولته في الساحة الشاسعة الممتدة، سار بتكاسل قطٍ عجوز .. اتخذ من ظل جدار منهار مرقداً .. راقب بعينين نصف مفتوحتين الخلاء الممتد أمامه .. أفلحت أسراب الذباب المحلقة فوقه في تعكير صفوه.

حاول الذود عن نفسه فطاردها بذيله .. فشل في اختلاس ساعة نوم في مكانه الظليل .. هاجت ذكرياته .. خانته عبرة .

❖❖❖

أثارته حركة بالجوار.. التفت ليتبينها.. وسع من فتحة عينيه الواهنتين.. عاود محاولة اقتناص غفوة من جديد.. لم يكن مثيراً لانتباهه وجود قط آخر في المكان.. رغم صغر سنه وفتوته البادية.

بعد دقائق شعر به يقترب من مرقده البارد، امتعض وتأفف لضياع آخر أمل لنومة مريحة..

وصل القط الفتيّ.. استغرب لوجود قط مثله في هذا الخلاء.. خصوصا وهو بهذه الفروة النظيفة، وقف على مسافة منه .. كانت كافية ليتأمله ملياً، تحسر في نفسه على شبابه..

استأذنه بأدب جم مشاركته ظل الجدار .. لم يحرك الكهل ساكناً.

اعتبر الزائر سكوته رضى منه على طلبه، اقترب أكثر.. استلقى بمحاذاته.. وضع رأسه بين قائمتيه..

بدا واضحاً رغبته في تبادل الحديث معه بدل البحث عن نومة هانئة إلى جواره.. امتعض القط العجوز من هذا الإحساس ..

لم يطل الصمت بين القطين المستلقيين تحت ظل الجدار .. كانت تفصل بينهما مسافة قليلة بحساب المكان .. أما بحساب الزمان فكانت أكثر من ذلك بكثير .

❖❖❖

بحث القط الفتيّ عن طريقة يفتتح بها حديثه مع الكهل ..

أعفاه الكهل من هذه المهمة العسيرة .. بادره متسائلاً:

- ما الذي يجعل قطاً جميلاً مدللاً مثلك يرتاد مكاناً موحشاً بعيداً كهذا؟

فرح الفتى بالسؤال الذي منحه مدخلاً للحوار مع الكهل المتناوم:

- هذا المكان هو موطن آبائي .. وجئت لألقي نظرة على المكان الذي طالما حدثتني عنه أمي بحرقة.

استثار جوابه الكهل.. طرد آخر بقايا النعاس عنه.. عدل من وضعه، سأله مستغرباً:

-أمك !!

كان السؤال كافيا للقط الفتيّ لمد جسور الحوار بينه وبين الكهل:

- حدثتني كثيرا عن موطنها الأصلي .. حدثتني عن أبي وكيف تزوجا.

- تزوجا هنا؟

- هكذا قالت.. حدثتني عن هذا المكان كثيراً.. حتى اشتاقت نفسي لرؤيته.. فها أنا هنا من أجل أن أشبع عينيّ ونفسي من موطن آبائي الأول.

❖❖❖

تنهد القط الكهل .. يبدو أن ما قاله الفتيّ حرك ما كمن في نفسه من ذكريات .. سأله الفتيّ بلهفة:

- وأنت ما الذي جاء بك إلى هذا الخلاء؟.

توقع الكهل السؤال.. غيّر من وضعيته من جديد قبل أن يجيبه:

- أنا من أهل هذا الوطن .... قبل أن يصبح خلاءً.

اقترب القط الفتيّ من مكان الكهل .. استأنف الأخير كلامه:

- ولدتُ هنا.. ترعرعت في خيراته.. وشهدت نهايته أيضا على أيدينا.. وها أنا آتي بين الفينة والأخرى لأبكي وطنا ضيعناه بحمق.

زفر زفرةً حارة.. سالت دمعة على خده.. صمت القط الفتيّ بعض الوقت، سأله بعدها:

- حكت لي أمي عن هذا الوطن.. كيف كان مرتعاً خصباً وجميلاً وواسعاً.. هذا كل ما جادت به.. كانت تبكي أيضا كلما تحدثت وتذكرت كيف صرنا وما آل إليه مصيرنا.

- ما اسم والدتك؟

فوجئ الكهل بعد سماع الاسم.. بل واستوى جالساً.. كان آخر اسم توقع سماعه.

❖❖❖

انسحب ظل الجدار قليلاً.. اقترب الكهل من الفتيّ.. تمعن في ملامحه:

- كيف غاب عني ذلك؟ .. إنك تحمل كل ملامحها.. هل لا تزال حية؟ .. هل ورّثتك كذلك عنادها وإصرارها وشراستها؟.

- يبدو أنك تعرفها جيداً.

تنهد من جديد.. عاد إلى مكانه الظليل.. استلقى.. أغمض عينيه:

- تلك أيام خلت.
- هل أطمع أن تروي لي نتفاً من ذكريات تلك الأيام؟.
- ألم تشف أمك غليلك؟
- ترفض البوح بما في جعبتها.. تكتفي بالتنهد والتحسر.. أحياناً تبكي كلما طلبت منها أن تحدثني عن هذا التاريخ.. لم أظفر منها إلا بالقليل.. لا أعلم لماذا ترفض الحديث عن وطنها؟ .. كل ما ظفرتُ به منها هو أنه كان وطنا جميلا خصباً.
- لا أستغرب منها ذلك.. أنا نفسي لا أستطيع الحديث عن الماضي.. أخجل كثيراً من ذكره.. فنحن سبب كل ذلك. كل ما أستطيع فعله هو الحضور إلى هنا.. ذات يوم كان وطنا يجمعنا.. صار الآن مجرد خلاء.. أتجرع أحزاني وأبكي على أطلاله.
- لماذا كل هذا الخوف من الحديث عن ماضيكم؟
- ليس خوفا يا ولدي.. بل خجلاً.
- حديثكم لنا عنه قد يجنبنا الوقوع فيما وقعتم فيه..

صمت القط الكهل.. يبدو أنه لم يستسغ ما قاله الفتيّ.

- ألا يمكن إعادة الوطن؟.
- لن يعود كما كان.. لن يعود كما كان.